بسم الله الرحمن الرحيم

كسر إرادة الأمة

الإرادة هي قرار داخلي يكون في أغلب الأحيان مرتبطاً بواقع معين يحيط بالإنسان، لكن القليل من الناس يستطيع تطبيقه في الواقع. وهي إحساس ينتج إما عن فكر وإما عن عاطفة. ونتيجتها يكون أمراً رائعاً لا يشعر به إلا الأقوياء، وهي ليست مرتبطة بالضرورة بالتربية أو بالثقافة، وتعتبر أفعال الناس وسلوكهم مظاهر لهذه الإرادة. ويمكن القول أن العالم المحيط بالإنسان هو من المؤثرات الشديدة على القرارات المتعلقة بالإرادة. فالعالم المحيط، منظور إليه من خلال المتغيرات من ظروف داخلية أو ذاتية ومن خلال الحاجات والمصالح والرغبات المتعلقة بالمرء، يمكّنه من أن يحدد لنفسه أهدافًا ثابتة، وأن يتخذ قرارات قوية، وأن يتصرف على نحو آخر ربما غير مألوف عند العامة. أما الإرادة التي تُختار فقط على أساس الرغبات الذاتية أي ناتجة عن عواطف أو أحاسيس أو ردات فعل فإنها ليست إرادة ثابتة ولا منتجة. فهي سرعان ما تتقهقر وتتراجع ويحل محلها الخوف والتردد. وإنما الإرادة المنتجة والناهضة فهي التي تنتج عن تفكير عميق مستنير فتكون كالصخر لا تتفتت.

تحدث الفلاسفة من أمثال إنجلز أن حرية الإرادة لا تعني شيئًا إلا المقدرة على اتخاذ القرارات بمعرفة الذات. وأن الطابع الإرادي لفعل ما، يظهر بوضوح شديد حينما يتعين على شخص أن يتغلب على عقبات معينة، خارجية أو داخلية، ليحقق هدفه، والمرحلة الأولى لفعل إرادي تكمن في وضع الهدف واستيعابه، ويتبع هذا قرار الفعل واختيار أنجح وسائل الفعل. ولا يمكن وصف فعل بأنه فعل إرادة إلا إذا كان تنفيذاً لقرار ذاتي. (انتهى كلامهم).

إن قوة الإرادة ليست منحة تولد مع المرء بل هي ناتجة عن الفكر الأساسي الذي تشبع به العقل وأصبح مقياسًا طبيعيًا لصاحبه في الحياة، كالتسليم المطلق بأن الله بيده كل شيء، وكالقناعة بأنه "على قدر أهل العزم تأتي العزائم". وتزداد الإرادة هذه وتقوى متناغمةً مع قوة العقيدة. فالمهارة والمقدرة على اختيار هدف ما، واتخاذ قرارات سليمة وتنفيذها، وإتمام ما بُدئ فيه هي ثمار الفكر والمعرفة والخبرة. وعدو الإرادة هو التردد، وهو مما ابتليت به الأمة نتيجة سيطرة الفكر المتخاذل عليها والمطبق من قبل وكلاء الكافر المستعمر، حكام العالم الإسلامي، الذين ساموا الأمة سوء العذاب بمخططات خارجية، كانت مخفية قبل عصر الثورات لا يراها إلا أصحاب الفكر المستنير والإرادة الصلبة من أبناء الأمة، ثم أصبحت واضحة جلية في عصر الثورات وخاصة من مجريات ثورة الشام الكاشفة الفاضحة.

وتظهر أهمية الإرادة عند اصطدام المرء بظروف قاهرة، كالمرض الشديد أو التغيير الجذري في الحياة أو اتخاذ قضية ما قضية مصيرية. وهذا ما علمنا إياه رسولنا الكريم ﷺ من قرارته الحاسمة في ظروف قاهرة كانت تحتاج لإرادة صلبة قوية، كعرض قريش عليه المال والنساء والملك ورفضه لكل ذلك وهو بأمس الحاجة والفاقة وبإصراره على موقفه وتبيانه ذلك بكلمات واضحة نيرة: «**يَا عَمُّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ**». ومن ذلك تخويف العرب للرسول الكريم بأن قريشا جمعت الجموع لسحق دولته قبيل غزوة الأحزاب فكان موقفه صلبًا راسخًا لا يتفتت فرد عليهم قولهم وأرعبهم بقوة إرادته حين قال: «**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ، دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**».

إن ثورات الأمة اليوم بحاجة لمثل هذه الإرادة العارفة والمستنيرة كي لا تتقهقر قوتها ولا تضيع تضحياتها ولا تتزحزح عن هدفها، وفي كل موقف من هذه المواقف المصيرية تحتاج الأمة لقائد فذّ مُلهم يقف صلبًا بإرادة وعزيمة ورؤية ساطعة نيرة كفلقة البدر في الليلة المعتمة، يأخذ بيدها ويجنبها منزلقات الأعداء وفخاخ المنافقين. تثق به وتتبعه بدقة. تبرز هذه الحاجة الملحة اليوم في الأمة عامة وفي بلاد الثورات خاصة. فها هي الشام تُستهدف من كل حدب وصوب كي تبتعد عن هدفها بتحكيم شرع الله وإقامة دولة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، فماذا تفعل؟

ليس لها إلا عملين تقوم بهما وتعض عليهما بالنواجذ، الالتجاء إلى الله أولًا، ثم الوثوق بحملة الدعوة المخلصين أصحاب الإرادة الصلبة والقرارات الثابتة ثبات الشرع الحنيف ثانيا، حينها ستهزم كل المؤامرات وستركل كل الحوارات وسترى أن مكر الله أشد وأبقى وأن العمل الصالح والإرادة الصلبة هما مفتاح النصر والظفر. ذلك أنها – أي الأمة – رأت أن من التفّت حولهم وعلقت الآمال عليهم كي يخلّصوها من جلاديها، قد خذلوها وتنازلوا عن ثوابتها وتراجعوا عن تبني إرادتها الصلبة التي أعلنتها من أول يوم قامت به لخلع رويبضاتها واسترداد سلطانها المغتصب. وأيقنت أنها أخطأت حين أعطتهم القيادة – مع أنها قيادة جزئية – وأنهم ليسوا أهلًا للثقة التي منحتها لهم. فقد رأتهم يهرولون إلى دول ترتهن في قراراتها لأعدائها وعلمت وأيقنت أنهم تنازلوا عن مواقفهم وتبنوا خططاً متخاذلة ستودي بهم وبثورتهم للهلاك وللهزيمة. ورأت أنه رغم المال والسلاح المكدس عند هؤلاء إلا أنهم لم يحركوا ساكنًا لرفع الحصار عنهم وللدفاع عن أعراضهم وبيوتهم، بل إن منهم من يتحداهم أي يتحدى الأمة في خروجه من الحصار ورجوعه بأمان وفي استعراضات للمال والسلاح والجند والغذاء دون إحساس بآلامها ودون ذب عن أوجاعها ولا حتى بمواجهتها بجرأة وصدق، لذا سارعت بطبيعتها الخيّرة كخير أمة أخرجت للناس لدمغه بالخيانة والتواطؤ ضدها.

لم تكن هذه الأحداث أبدًا عرضية في معترك الثورات، ولم تكن الأمور بحاجة لأن تتفاقم بهذا الشكل في الشام حتى تتضح الصورة وتبرز كل ملامحها لو أن الأمة أمسكت بمقياسها الشرعي وقاست به كل هؤلاء المتشدقين الراكبين لكبريائها ولثوراتها من أول يوم، إلا أن الهروب من إرادة اتخاذ القرارات الصعبة والانزلاق في البحث عن الحلول السهلة التي تلمع في أعين الناس المنهكين من الحصار والقصف والتشرد جعلهم يقنعون أنفسهم أن هذا الذي يلمع هو ذهب رغم يقينهم أنه معدن بخس لا قيمة له. ولكن، هل بهذا السلوك تنجو الأمة وتتخلص من آلامها؟

بكل تأكيد أن الذي سيحصل هو العكس تمامًا، فآلامها ستزداد وتضحياتها ستتوسع وخلاصها سيتأخر. لذا فإن حلها الوحيد لكل ما يجري فيها هو نفض غبار الولاء لكل من يمد يده للخارج. والخارج هنا يعني خارج الشرع الحنيف وخارج أهداف الثورة. فقد رأت الأمة أن الكل خذلها، فلا يصح أن تقيس موقف تركيا إلى موقف الأردن أو لبنان فتخرج بنتيجة إيجابية! بل الأصل أن تقيس موقف تركيا بالإسلام، فيجيبها الشرع أن تركيا هي بلاد إسلامية وجيشها جيش إسلامي قوي ولم ينصرها هذا الجيش وتخاذل عن رفع آلامها رغم أن الإسلام يفرض عليه ذلك، لكنه استجاب للقانون الدولي الكافر وابتعد عن القانون الإسلامي الملزم. وهكذا كل من يضع يده بيد تركيا أو غيرها فإنه يشد على يد مَنْ منع نجدة المسلمين وقبل بأنصاف الحلول أي بالتخاذل والهوان لأمته رغم الكلمات الرنانة التي يستعملونها من "إنهاء المعاناة" و"إيقاف القتل" و"القبول بأية مبادرة تنقذ الناس" وغير ذلك من تخاذلٍ لا ولن يقبل به من ضحى وصبر بانتظار الظفر.

أما كسر الإرادة، فعندما تقف موقفًا شديدًا أمام عدوك ويظهر له أن إرادتك قوية صلبة وأن لا حيلة بيده أمامك وأمام ثباتك، فإنه يعمد إلى الالتفاف عليك والقيام بما يفضي إلى كسر إرادتك. من ذلك قول أوباما "لا حل لما يحدث في سوريا إلا حلًا سياسيًا" أو قوله: "لا بد من الحفاظ على الدولة في سوريا". فإن هذه التصريحات تهدف إلى تيئيس الثوار والضغط النفسي

عليهم أن لا مخرج لكم إلا بالقبول بالحل الأمريكي. ومن ذلك بث شائعات إعلامية أن الثوار لا يستطيعون إسقاط النظام إلا بمساعدة الغرب أو إلا بموافقة مجلس الأمن أو أن النظام بيد إيران وروسيا. كل ذلك كي يكسروا إرادة الثورة وحتى يوجدوا الغطاء الذي يحمي أولئك الذين يحاولون تنفيذ خطط أمريكا فيهرولون من أجل ذلك إلى جنيف وإلى روسيا وإلى الرياض، وهم يزعمون "أننا نفعل ذلك حبًا بالثورة وخوفًا على أرواح الناس"!.

إن كسر إرادة الأمة تم في الماضي وانتصر أعداء الإسلام ليس بقوتهم المادية وإنما بتحطيم إرادة المسلمين. ومن ذلك بث الأكاذيب عن ظلم الخلفاء أو بث الرعب من تطبيق الإسلام. وهذا ما قام به حكام المسلمين عملاء الغرب في موضوع فلسطين فرسموا للأمة أن دولة يهود هي نمر سيفترسكم، ثم تبين للأمة بعد نصف قرن أنها نمر من ورق وأن حكامهم كذبوا عليهم.

ولمنع كسر إرادة الأمة وكسر إرادة أهل الثورة يلجأ المؤمنون لله وحده ويعتصمون بحبله المتين دون تأويلات المتلونين الذين يتحدثون بلسان الغرب، حين يطالبون بدولة مدنية لا إسلامية، ويلصقون الديمقراطية الغربية بالإسلام كي يحرفوها عن نقاوتها، ويمدحون دعاة الحوار كي تقبل بهم الأمة وبعد أن تقبل بهم يفاوضون باسمها ويتنازلون باسمها ثم يكتمون ما تنازلوا عنه خوفًا من غضبها، ثم بعد عقود تتكشف الحقائق ويكون الوقت قد فات كما حدث في وعد الحلفاء في الحرب العالمية الأولى بتحويل دار الخلافة من الأتراك إلى العرب. ثم نكثوا وغدروا بهم، فانكسرت إرادة الأمة وغرقت في يأسها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾، قال ابن جريج في تفسير الأية هذه، عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم، فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه. انتهى.

لهذا لم يبق لأهل ثورة الشام إلا أن يثبتوا مع من دعاهم لما يحييهم، إنهم حملة الدعوة المخلصين الذين لا يرجون من دعوتهم للأمة لا منصباً ولا مالاً بل فقط رضوان الله تعالى، تعرفهم من رفعهم لراية نبيهم ﷺ، إنهم الثابتون على طريقته المثلى السائرون على سنة النبي مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام المتمسكون بهدفهم رغم كل المؤامرات. فلا نجاة ولا حياة كريمة لهذه الثورات إلا بالسير معهم والتماس طريق العزة باتباع طريقهم. قال تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ**﴾.

اللهم لا تكسر إرادة أمتنا واجعل بأس أعدائها بينهم شديداً، اللهم وامضِ لهذه الأمة أمر رشد ترتفع به عزائمها وتقوى إرادتها وتنتصر باعتصامها بحبلك المتين يا رب العالمين.

كتبه للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

م. هشام البابا

عضو المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير